

اللغة القبطية

نشأتها وتطورها

للدكتور ناهور لبيب

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية نشأتها وتطورها يجدر بنا أن نعرض لهذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يعط اللثام عن معالم كثيرة تميز الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ، فلفظ (قبطي) نسبة إلى (قبط) وهنا يرى إيه النسبة العربية. أما كلمة (قبط) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف الساكن (اي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة — قبط — بالجمجمة المنعطفة التي تنطق مادة (ق)، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري. ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخناس بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان فالناريخ يمدتنا والآثار تؤيده على أن العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر التوحيد الثالث (٦٥٨٠ — ١٠٨٥) ق. م. وذلك أن بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم

وأخذت هذه العلة تنمو تدريجياً حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر. وبعد دخول قبيل جاهل الفرس البلاد زح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكرهم الذين عنوا بدواسة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق أهلها، نذكر منهم هيرودوتس المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهو مبروس الشاعر وأرفيروس الموسيقي وغيرهم وهكذا أصبحت مصر كمية الاقتصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى أن (بسماتيك الأول) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (وأول ملك من ملوك عصر التوحيد الرابع) منح الجالية اليونانية جزءاً المساعدة التي قدمها له جنود اليونان لبعض الأجزاء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم كالحلي الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنة. ثم في عصر الملك إحس الثاني خصصت لهم مدينة (نوقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفت الملوك

لذلك لا تعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بتقدم الإسكندر ويرسم كنهة آمون له أيضاً لكبير آلهتهم آمون ومنحه مائراً الألقاب الفرعونية الحقة. توفي الإسكندر

وورثه الطالسة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدت العلاقات الثقافية إلى السياسة إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (٣٣٢ ق. م. إلى ٣٠ ق. م.) وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني وكان أيضاً لأن يفس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيروغليفية والديموطيقية فبدأ الكتابة اليونانية، وإن كانت من أصل مصري، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة. لذلك شعر المصريون بالحاجة لتقوى إلى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة إلى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها خاصة في كتابة أسماء الأعلام. ثم فاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري (برثينوس) وتلاميذه. المصريون حوالي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد فقد نقحوا الاملاء القبطي وكثيرا اللغة في الأبجدية اليونانية البالغ عدد حروفها أربعة وعشرون وأضافوا إليها سبعة حروف وهي (شاي وقاي وخاي وهوري وجنجا وكشيا وتي) أخذت من الديموطيقية لعدم وجود أصواتها في اليونانية. ثم أضافوا حرفاً آخر وهو (سو) الذي يستعمل للدلالة على العدد «٦» كما هو الحال في اليونانية. ومن حسن الحظ أن حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع إلى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد أيام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م.

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعها العلامة (جريفث) (١) والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (ارمان) (٢). فهذان النعان يعالجان أموراً تتعلق بالبحر والتفك لا علاقة لها بالمسيحية بناتاً. ففي البردية الأولى نجد ذكراً لنجم السعد وآخر لنجم النحر كما يوجد في النصين دعاء إلى أوزيريس إله الموتى وأوزيريس إله الحياة ورجع وايزيس. وغير هذه الكتابات عثر في تخميم على بطاقات للمومياة يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هادريان وقد نشرها (شتيندورف) (٣). وكلها يتقدم لنا العهد بمجد المسيحية ثلاث في مصر فتتجهز أمامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين إلى الاعتراف بها ديناً رسمياً له والدولة حوالي عام

(١) E. L. Griffith, The old Coptic Hieroglyphs of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85.

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwörungen des grossen Pariser Zauberpapyrus, Aeg. Z. 1883, p. 89.

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890, p. 49; Die Mumienschriften

٣٢٥ م. وحوال خلقه بعض المبادئ المصرية القديمة الى كنائس كما اُغلق الباقي منها ثم جاء الامبراطور (جوستيان) فأرسل قائده (زيس) الى جزيرة القبطية حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس واوزوريس. وهكذا ترى المسيحية تبرز بعد ان قدمت من ابناءها الشهداء الكثيرين ايام حكم (دوقليان) حوالي عام ٢٨٤ م. فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً المسيحية ووطناً للديورن والرهبنة، واستطاع الاقباط أن يخلقوا فنساً قبطياً متأزراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر.

أما اللغة القبطية وأدائها فقد استمرت حية حتى القرن العاشر الميلادي بدليل اننا نجد الاسقف ساورس بن المقفع يقول ما معناه ان القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى ان كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية. وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان. الذي أحل العربية محلها سنة ٧١٤ م. ولما كانت سنة ٨٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن الميزان أحد ملوك الفاطميين وأمر بإبطالها لغة حية. واللغة القبطية كثيرها من اللغات تنقسم الى لهجات وقد ظهر ذلك جلياً عند استخدام الأبجدية اليونانية لاستخدام الحروف الصائتة الى جانب الصامتة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط. ونحن نستطيع ان نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع ان نجزم بوجود أكثر من لهجتين في القصر الفرعوني. وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية خاصة مصر الرسمية، ايام اليونان والرومان، وما جاورها في الوجه البحري. وبما زاد في انتشاره اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى (بابلون) أي القسطنطينية او مصر القديمة ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة. وما زال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبادات في الكنائس الارثوذكسية وبين قليل من الأسر ويلاحظ انها أكثر اللهجات تأزراً بالفردات اليونانية لقرها من مواطن الثقافة اليونانية

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى
ثالثاً — اللهجة الاخميمية وهي خاصة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدما تأزراً بالفردات اللغة اليونانية وذلك لبعدها عن الأوساط الاجنبية
رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان
هذه نظرة حاملة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت ان لفظ قبطي هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحية مسلمية، وما تحوالت الى القراء. بعض أدب هذه اللغة